خالد بن الوليد في العراق [1]

جولة في سهول الحيرة : قمنا أنا ومعالي الدكتور ناجي الأصيل مدير الآثار القديمة العام وموظفون في المديرية ، في شتاء سنة ١٩٥٣ م ، بزيارة خاطفة لسهل الحيرة وأطلال خَضْيَرن آباد والخَوَرْنَق والعُذَيْب (الرَّحبة) والقادسيّة . فأيّدت لنا هذه الزيارة لسهل الحيرة ما ذكرناه سابقاً ، في بحثنا لجغرافية العراق ، عن العراق قبل الفتح العربيّ .

والسهل ، كما بيّنّا ، واقع بين الفرات ومنخفَض بحر النجف . وهو مرتفع يشرف على البادية من الغرب ، وعلى الفرات من الشرق . ولم يبق فيه من آثار المدينة العربيّة القديمة إلا أطلال خيزن آباد الواقعة الى الجنوب الغربيّ من حدود المدينة وبقايا بناء يُظَنّ أنه دير . وقد أجرى فيه باحث بريطاني ، قبل بضع سنين ، بعض الحفريات .

أما قصور المدينة التي ورد ذكرها في كتب التأريخ ، فلم يبق منها إلّا تلولٌ واطئة انتشرت هنا وهناك ، هي كلُّ ما بقي من قصور الحيرة ، وما يزال أثر تخطيط هذه القصور ظاهراً ، وأكثر ما يبدو اذا نزلت الأمطار ، فتظهر أسس البناء ؛ لأن لونها بعد المطر يختلف عن لون التربة المحيطة بها .

وقد شاهدنا جنوبيّ بقايا الدير تلّاً هو طالل قصر قديم ، وكان أثر سوره ظاهراً . وفي هذا السور ، كما يُرى ، أبراج يبعد بعضها عن بعض زهاء عشرين متراً ، وفي وسط الضلع المتجه الى الجنوب برجان كبيران متقاربان ، يدلان على أنهما قد أقيما لحماية باب القصر .

والى جنوب غربي هذا التل وعلى بُعْد زهاء كيلومترين بقايا بناء شيّد على الحافة الشرقيّة للسفح الحجري الذي يسيطر على بحر النجف من الشرق ، وما بقي من هذا البناء بقايا

---

(١) أنظر المجلد الثالث من هذه المجلة .

إيوان ، على جانبيه غرفة . والإيوان يشرف على بحر النجف والبادية ، وثمّـة أثر يدل على درج للهبوط من البناء الى الأسفل . وقد أطلق الأهلون على هذا البناء اسم (طميزراد) ، وهو تحريف (ضيزن آباد) اسم قصر ورد ذكره في كتب التأريخ والجغرافية . وآثار السور الذي شاهدناه ، تؤيد ما كتبناه عن الحيرة[1] من أن قصور الحيرة كانت تحافظ بسورين : سور داخلي ، وسور خارجي فيه أبراج للدفاع والمراقبة .

فتح الحيرة : ذكرنا قبلاً أن خالد بن الوليد بعـد اصطدام جنده بجند أبن أزاذبه في فم فرات بادقلى ، وفرار أزاذبه ، جمّع قوته ، وسار قاصداً الحيرة . فنزل أولاً في الخورنق ، ثم عسكر في المحل الذي كان جنـد أزاذبه فـيه قبل هربه . وهذا المحل يقع بين الخورنق والحيرة ، والمسـافة بينهما تبلغ زهاء ستة كيلو مترات . والحيرة ، كما بيّنا قبلاً ، كانت الهدف الثاني في حركات خالد بن الوليد .

وليس من شك في أن أهل الحيرة كانوا على علم تامّ بحركات خالد في العراق ، ولا بدّ من أنهم تعقبوا حركاته ، وعلموا أن أزاذبه قتل ، وأن أباه حاكم الحيرة قد هرب ؛ ولا نشك أنهم بثوا العيون لمراقبة خالد .

ولمّا أتاهم الخبر أن خالداً نزل (بين الغَرِيَّيْن والنجفة) جنوبي الحيرة وقريباً منها ، جمعوا الدواب ، وأدخلوها في قصورهم ، وتحصنوا بها . وكانت مزارع الحيرة وبساتينها ، كما أشرنا سـابقاً ، بين القصور . هـكذا تحصّن أهل الحيرة بالقصور ، ورابط الرجال في الأبراج وعلى السور : يراقبون تقدم خالد بن الوليد .

وتدل الروايات على أن أهل الحيرة لم يبدوا مقاومة تذكر ، ولم يكن في وسعهم منازلة جيش خالد بعد أن خسر الفرس المعارك في كل المواقع ، ولم تكن لديهم قوة كافية يدافعون بهـا عن العيالات والذراري . وفي روايـة أن رجال الحيرة كانوا ستة آلاف ، وهم الذين كُلِّفوا دفع الجزية .

(١) أنظر (ص ٧٨) من الجزء الأول للمجلد الثالث من المجلة .

ولما رأى خالد أن الناس تحصّنوا في قصورهم ، طلب الى قادته محاصرة القصور ، وبث رجاله في المزارع والبساتين . ويبدو أن أول قصر واجه المسلمين في تقدمهم تلقاء الحيرة ، هو القصر الأبيض . واذا كان خالد قد عسكر في المحل الذي عسكر فيه أبن أزاذبه ، فان جنده في مسيرهم الى الشمال يواجهون القصر الأبيض ؛ لأن قائد الفرس كان قد عسكر بين الغريين والقصر الأبيض كما رواه الطبري ، وهذا القصر ملك إياس بن قبيصة الطائي . وكان إياس عامل كسرى أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر[1] . وهو ، بالشكل الذي بيّنا ، محاط بسورين ، وللسور باب ، ولعله كان متّجهاً نحو الجنوب ، كالباب الذي شاهدنا آثاره شمال شرقي ضيزن آباد .

وتدل روايات سيف بن عمر على أن رجال خالد حاصروا القصور ، القصر الأبيض وفيه إياس ، وقصر المدسيين وفيه عدي بن عدي ، وقصر أبن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح . وتشير الرواية الى أن ضرار بن الأزور حاصر القصر الأول ، وحاصر ضرار بن الخطاب قصر المدسيين ، وحاصر ضرار بن مقرن المُزَنيّ قصر أبن بقيلة ، ودعا خالد أهل القصور الى الأستسلام .

وتذكر الرواية أن قتالاً وقع بين رجال ضرار بن الأزور والمتحصنين بالقصر ؛ لأن هؤلاء فضلوا المنابذة على الأستسلام ، فرموا المسلمين بالخزازيف ، ورشقهم المسلمون بالنبل . ويفهم من الرواية أن القادة الآخرين أيضاً جابهوا المقاومة نفسها ، فرموا أهل القصور ، وكان من الطبيعي أن لا يؤثر النبل في الأسوار وليس للمسلمين آلات الحصار .

وجاء فيما كتبه الطبري أن المسلمين أكثروا من القتل ، مما جعل القسيسين والرهبان من أهل الأديرة يتذمّرون من أهل القصور ، ويقولون لهم : « ما يقتلنا غيركم » . واضطر أهل الحيرة أخيراً الى الأستسلام ، لأن المسلمين هددوهم بقطع نخيلهم المنبثة بين القصور ؛ وذكر الطبري أن المسلمين بثّوا الغارات فيمن يليهم ، الى أن افتتحوا الدور والديرات .

(١) البلاذري (ص ٢٤٤) .

وفي رواية ذكرها البلاذري نقلاً عن يزيد بن نبيشة العامري أن أهل الحيرة تحصنوا في القصور ، فأجال المسلمون الخيل في عرصات الحيرة ، وقال العامري : « ثم أتينا الحيرة وقد تحصن أهلها في القصر الأبيض وقصر ابن بقيلة وقصر العدسيين ، فأجلنا الخيل في عرصاتهم ، ثم صالحونا[1] » .

ولا يبعد أن المسلمين وسطوا أهل الأديرة ، مما جعل القسيسين والرهبان ينادون أهل القصور بالاستسلام .

يتبين مما ذكرناه أن مدينة الحيرة أستسلمت من غير مقاومة تذكر ، وجرى الصلح بين المسلمين وأهل الحيرة بالشروط التي ورد ذكرها في كتب التأريخ . وكان ممثل أهل الحيرة ابن بقيلة بحمرو بن عبد المسيح .

وذكر المستشرق الإيطالي « كيتاني » أن خالداً باغت مدينة الحيرة قادماً من الشمال الشرقي . وقد أنتقدنا من قبل رأيه هذا[2] . والحيرة بقصورها وأبراجها وعيون رجالها ، لايعقل أنها تباغت من قبل المسلمين من أية جهة قدموا . ولم يكن المسلمون من القلة بحيث يستطيعون أن يخفوا حركاتهم ويباغتوا المدينة . والحيرة ، كما ذكرنا في البحث الجغرافي ، مسالح في الجنوب ، وفي الغرب مسلحة العُذَيب والقادسيّة والخَوَرْنق ، ولا يتصور أن يمر المسلمون بهذه الأماكن من غير أن يكون لأهل الحيرة علم بذلك .

ومما شرطه خالد في كتاب الصلح « أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين[3] » . وبفتح الحيرة وصل خالد الى هدف الحركات الثاني . واذا صح تأريخ الكتاب الذي ثبت شروط الصلح بين المسلمين وأهل الحيرة ، يكون الفتح قد تم في شهر ربيع الأول سنة ١٢ للهجرة ، أي النصف الثاني لشهر أيار أو النصف الأول لشهر حزيران سنة ٦٣٣ م .

---

(١) البلاذري (ص ٢٤٥) .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي (١/٣/٦٨) .

(٣) كتاب الخراج (ص ١٧٢) .

رأس جسر كما يعبرّ عنها في المصطلحات العسكرية . وكان الفرس يدّخرون فيهـا الأرزاق والتجهيزات ، يموّنون بها جندهم ويجهزونهم بها . ولمّا كانت ثاني قلعة من قلاع الفرس معرضة لهجوم البيزنطيين الذين كانوا في حروب مستمرة مع الفرس ، كان لا بدّ من أدّخار الأرزاق فيها للاستفادة منها وقت الحصار . والقلعة الأولى كانت الفُراض على الفرات في جوار الصالحية على طريق عانة — دير الزور . وكانت الأنبار تموّن الجيش الفارسي في أسفاره الى الشمال والشمال الغربي في فتوحاته في بلاد الشام وبلاد الأناضول . وقد أشار جغرافيو العرب الى أنها كانت مدينة الأهراء ، وذكر ياقوت أنها سُمّيت أنباراً لأنه كان يجمع فيها أنابير الحنطة والشعير والقتّ والتبن ، وكانت الأكاسرة ترزق أصحابها منها .

وكان خالد يعلم أن للفرس حاميـة في الأنبـار ، كما أن لهم حاميـات في عين التمر وفي الفُراض . وفي رواية للشعبي أنه « كان بالعين (عين التمر) عسكر لفارس ، وبالأنبار آخر ، وبالفراض آخر [1] » .

وصل خالد الى الحيرة قبل عياض بن غَنْم ، وبذلك أصبح قائد جيوش المسلمين في العراق بلا منازع ، وصار في الوقت نفسه الأمير على عياض عملاً بأوامر الخليفة التي تنص على أنه « أيهما سبق الى الحيرة فهو الأمير على صاحبه [2] » . ودرس خالد الموقف العسكري ، ورأى أنه ما تزال أمامه أعمال أخرى لإكمال الفتح ، فمدينة الأنبار ليست بعيدة عنه ، ثم هي مدينة خطيرة تهدد خلفه إذا أراد فتح عين التمر ، والعين هذه يجب أن تفتح لأن جماعة من بني تغلب وقوة من الفرس ترابط بها ، ولا يصح عسكرياً أن يذهب خالد الى نجدة عياض بن غنم الذي شُجِر بدومة الجندل قبل فتح عين التمر ، إذن ينبغي أن يبدأ بفتح الأنبار أولاً ، ثم يفتح عين التمر .. هكذا أعتزم خالد فتح الأنبار بعد أن أستقام له الأمر في الحيرة . وتبعد الأنبار من الحيرة زهاء ثمانين ومئة كيلو متر .

وإذا راعينا الأسلوب الذي بموجبه يجري (درس الموقف) من قبل القادة العسكريين في

(١) الطبري (٢/٥٧٣) . (٢) الطبري (ص ٥٧٤) .

وضعهم للخطط الحربية قبل تنفيذها ، جاز لنا أن نتصور كيف درس خالد الموقف الحربي وقدّره بعد فتح الحيرة .

إن أمر الخليفة صريح ، وهو يقضي بأن يصبح خالد الأمير على عياض بسبقه إياه في فتح الحيرة ، أي بتولية خالد فعلاً قيادة عياض بن غنم الذي ما يزال يحاول الوصول الى العراق من شماله ، وقد قامت بوجهه دومة الجندل وحصنها مارد . ولم يستطع فتحها . وقصبة دومة الجندل ، أي الجوف ، واقعة على ملتقى طرق خطيرة في وسط القسم الشمالي لجزيرة العرب . ولا يجوز أن تبقى القوة التي يقودها عياض بن غنم عاطلة بعيدة عن ساحتي الحركات : الساحة الشرقية في العراق ، والساحة الغربية في بلاد الشام حيث تحارب جيوش الإسلام جيوش الروم . وإن بقاء دومة الجندل بيد أعداء المسلمين الذين سدوا الطريق بوجه عياض ، يشجع الفرس والروم على الاستناد اليها في حروبهم ضد المسلمين في الشرق والغرب ، والقصبة هذه مركز مهم تجتمع حوله القبائل العربية المعادية للإسلام ، وهي على اتصال مستمر بالفرس بواسطة قبائل تغلب ، وبالروم بواسطة قبائل كلب ومن حالفهم . إذن لا بد من الحركة الى دومة الجندل ، لنجدة عياض بن غنم والاستيلاء على ذلك المركز المهم ، وبدون ذلك لا يصبح المسلمون بالعراق وبالشام في مأمن من تشبثات الفرس والروم التي تهدد المسلمين من الخلف . وإذا كان الموقف الحربي يتطلب فتح دومة الجندل ، فينبغي التمهيد له ، وذلك بتصفية ما بقي من مراكز المقاومة الفارسية في العراق : أي الأنبار على ضفة الفرات اليسرى ، وعين التمر الواحة الواقعة الى غربي الفرات والتي دلت المعلومات على أن جماعات من تغلب تجمعت فيها لمعاونة الفرس ، ولا يجوز التقدم نحو عين التمر وبالأنبار قوة فارسية تسيطر على معبر النهر وتساعد على العبور منه . وفي إمكان هذه القوة الفارسية تهديد خط مواصلات خالد حين مسيره الى عين التمر ، فضلاً عن أن تكون الأنبار مركز مقاومة للتآمر مع القبائل العربية المعادية للمسلمين وعلى رأسها بنو تغلب .

لقد جالت في ذهن خالد بن الوليد هذه الخواطر أو ما شابها ، فقرر البدء بفتح الأنبار .

أشار الأخباريون بعد فتح بانقيا وباروسما وقسيأثا الى حوادث وقعت في الأنبار ، ويتبين من الروايات أن الاضطرابات التي حدثت في بلاد فارس في زمن الفتح العربي أدت الى إهمال أمر الأنبار ، فلم ترابط فيها إلا حامية ضعيفة ، ولعلها كانت قوية قبيل الحركات في العراق . ولكن ضعف القوات الفارسية التي اضطرت الى الاشتباك مع قوات المسلمين في جنوب العراق ، جعل قيادة الفرس تسحب بعض جنود الحامية ، وتبعثهم الى الجنوب . وفي رواية لسيف بن عمر أوردها الطبري [1] : « أن أهل فارس كانوا بموت أردشير مختلفين في الملك ، مجتمعين على قتال خالد متساندين . وكان بذلك سنه (؟) والمسلمون يمخرون ما دون دجلة ، وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر ، وليست لأحد منهم ذمة ، إلا الذين كاتبوه واكتتبوا منه ، وسائر أهل السواد جلاء ومتحصنون ومحاربون » .

ولا نعلم المدة التي قضاها خالد في الحيرة ، ويغلب على الظن أنه افتتحها يوم وصول جنده إليها . ولا بد أنه قضى فيها بعض الوقت ، لتنفيذ شروط الصلح ، ولإشرافه على أعمال العمال الذين بعثهم الى الأطراف . وفي رواية أن خالداً قضى خمسين ليلة في الحيرة بعد فتحها ، ولا ريب في أن الأخبار التي وردت من عيونه عن الأنبار شجعته على فتحها .

الإغارة على سوق بغداد وسوق الخنافس : أشارت الروايات حين ذكرها فتح الأنبار الى إغارات على سوق بغداد ، ولم يفهم منها بجلاء هل وقعت قبل فتح الأنبار أو بعده . وبينما ذكر البلاذري خبرها ، لم يذكرها سيف بن عمر الذي اعتاد أن يسهب في أخبار الفتوح ، ولكنه أسهب في إيراد خبر الإغارات على سوق بغداد وسوق الخنافس في حوادث سنة ١٣ هـ في خلافة عمر ، وكأنها وقعت بعد انتصار المسلمين على الفرس في وقعة البُوَيب . فهل أخطأ سيف ابن عمر في التأريخ وذكر الواقعة المذكورة في حوادث سنة ١٣ هـ بدلاً من سنة ١٢ هـ ؟ أو أن الوقعة تكررت فوقعت أولاً حينما كان خالد يقود الحركات في العراق ، ووقعت مرة أخرى في سنة ١٣ هـ قبل تولية سعد بن أبي وقاص القيادة في العراق ، أي بعد أن انتقم المسلمون من

---

(١) الطبري (٢/٥٧٢) .

الفرس عن هزيمة الجسر بأنتصارهم عليهم في معركة البُوَيْب ؟ وقد أدمج سيف في روايته خبر الإغارة على سوق الحنافس في خبر الإغارة على سوق بغداد ، وزعم أن المسلمين قدموا الى الحنافس من الأنبار .

وذكر الطبري خبر الإغارة على سوق بغداد نقلاً عن المدائني ، وسجلها في حوادث سنة ١٢ هـ . ويبدو لنا أن سيف بن عمر أدخل الإغارة على سوق بغداد خطأ في حوادث سنة ١٣ هـ ، ولم يذكر البلاذري والمدائني خبراً عن سوق الحنافس ، مع أن سيف بن عمر ذكر الخبر مفصلاً . ونذكر فيما يأتي الروايات الباحثة عن تلك الإغارات :

ذكر البلاذري : « أن خالداً أتى الفلاليج مُنْصَرَفَهُ من بانقيا وبها جمع للعجم ، فتفرقوا ، ولم يلق كيداً . فرجع الى الحيرة ، فبلغه أن (جابان) في جمع عظيم بلستر ، فوجه اليه المثنى بن حارثة الشيباني وحنظلة بن ربيع بن رياح الأسيدي من بني تميم . فلما انتهيا إليه هرب ، وسار خالد الى الأنبار ، فتحصن أهلها ، ثم أتاه من دله على سوق بغداد وهي السوق العتيقة عند قرن الصَّراة . فبعث خالد المثنى بن حارثة ، فأغار عليه ، فملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء وما خف حمله من المتاع ، ثم باتوا بالسليحين ، وأتوا الأنبار وخالد بها ، فحصروا أهلها ، وحرقوا في نواحيها ... فلما رأى أهل الأنبار ما نزل بهم ، صالحوا خالداً على شيء رضي به ، فأقرهم . ويقال إن خالداً قدّم المثنى الى سوق بغداد ، ثم سار بعده فتولى الغارة ، ثم رجع الى الأنبار » . وأضاف البلاذري قائلاً : « وليس ذلك بثبت [1] » .

أما الطبري فذكر رواية المدائني ، وقد جاء فيها : « أن خالد بن الوليد أتى الأنبار ، فصالحوه على الجلاء ، ثم أعطوه شيئاً رضي به ، فأقرهم ، وأنه أغار على سوق بغداد من رستاق المال ، وأنه وجه المثنى فأغار على سوق ، فيها جمع لقضاعة وبكر ، فأصاب ما في السوق ، ثم سار الى عين التمر [2] » .

أما سيف بن عمر الذي أدخل وقعة سوق بغداد في حوادث سنة ١٣ هـ ، فذكر ما يلي :

(١) البلاذري (ص ٢٤٧) . (٢) الطبري (٢/٥٨٢) .

« أتى رجلان المثنى : أحدهما أنباري ، والآخر حيري ، يدله كل منهما على سوق . فأما الأنباري فدله على الخنافس ، وأما الحيري فدله على بغداد[1] » .

أما ياقوت فذكر « أن المثنى أتى الأنبار ، فتحصن أهلها فيها ، فأرسل الى مرزبانها ليسير اليه فيكلمه . فعبر المرزبان ، وقال له المثنى : إنه يريد الإغارة على سوق بغداد ، ويريد أن يبعث معه أدلاء ، ويعقد له الجسر . ففعل المرزبان ، وقد كان قطع الجسر قبلاً ، لئلا تعبر العرب عليه » .

ويفهم من خبر البلاذري أن خالداً بعث المثنى الى سوق بغداد قبل محاصرته للأنبار . أما المدائني ، فروى أن خالد بن الوليد وجه المثنى الى السوق بعد صلح الأنبار . وأما رواية سيف بن عمر ، فلا يعلم منها هل أن الرجلين دلاه على السوقين قبل فتح الأنبار أو بعده ؟

ويستنبط مما ذكره ياقوت أن الإغارة على سوق بغداد شنت بعد فتح الأنبار ، ويفهم منها أيضاً أن المثنى أتى الأنبار من ضفة الفرات اليمنى . وفيما قاله ياقوت إشارة صريحة الى وجود جسر بالأنبار قطعه المرزبان لئلا يعبر العرب عليه .

***

ويتبين من تفصيل ما تقدم أن خالد بن الوليد بعد فتحه لبانقيا وباروسما وقسياثا أعتزم فتح الأنبار ، ولكنه قبل أن يقدم على ذلك بث رجاله في الأطراف بين الفرات ودجلة ، وأغار رجاله على الطسوج الواقعة بين النهرين . وكان عماله في هذه الغزوات : عبد الله بن وثيمة النصري نزل بالفلاليج على المنعة ، وقبض الجزية . وبشير بن الخصاصية على النهرين ، وسويد بن مقرن المزني على تستر ، وأط بن أبي أط من بني سعد بن زيد مناة على رودمستان .

والطسوج التي ورد ذكرها في الروايات : طسوج كورة بهقباذ الأسفل ومنها المستتر ورودمستان ، ومن طسوج كورة بهقباذ الأوسط بانقيا وباروسما . أما النهرين والفلاليج ففي طسوج بهقباذ الأعلى . والكورات هذه تمتد شمالاً من طسوج عين التمر ، وهي من كورة

(١) الطبري (٢/٥٥٦) .

بهقباذ الأعلى الى لسنر وروذمستان الواقعتين شرقي الفرات ، والسليحين في الضفة الغربية منه ، ومن مواقعه الخورنق وضيزن آباد . أما الفلالليج ، فليست هي الفلوجة الحاضرة التي تقع في كورة فيروز سابور ومن طسوجها الأنبار ، بل هي اسم علم لقرى عديدة واقعة على ضفتي الفرات من جنوبي الأنبار إلى شمالي النخيلة ، وهي الفلاليج العليا في الشـــمال ، والفلاليج السفلى في الجنوب . وكان في العراق موقعان يدعيان بالخفافس : موقع بين الأنبار وسوق بغداد على الطريق ، وموقع آخر غربي الفرات على طريق البادية الذي يربط الحيرة بالفراض ويمر بعين التمر ؛ وكذلك نهران أو جدولان يدعيان بالسيلحين : الأول يأخذ الماء من الفرات من فم مجمع الأنهار قريباً من الجعارة ، والثاني يأخذ الماء من جدول الصراة ويسقي المزارع بين الأنبار وسوق بغداد .

وكان غرض خالد من تلك الإغارات قبض الخراج ، وضمان الأرزاق لجنوده ، ونشر فتوحاته إلى ضفاف دجلة ما أمكنه ذلك . لهذا لايستبعد أنه بعث المثنى الى سوق بغداد قبيل فتحه للأنبار .

ذكر البلاذري أن السوق واقعة في قرن الصَّراة قريباً من المكان الذي يصب نهر الصَّراة ماءه في دجلة ، وهو من الأنهار التي تستقي الماء من الفرات وتجري الى الجنوب الشرقي نحو دجلة ، ولعل مكان السوق يقع جنوبي الشالجية . وذكر ياقوت أن أهل الحيرة قالوا للمثنى : إن بالقرب منّا قريةً تقوم فيها سوق عظيمة كل شهر مرة ، فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد ، يقال لها إذ ذاك (بغداد) .

ونحن نميل الى أن الإغارة وقعت قبـل فتح الأنبار ، والإغارة بحد ذاتها تتمة للإغارات التي شنّها رجال خالد بين دجلة والفرات بعد فتح الحيرة . وهي عمل متصل بتلك الأعمال . ومن الروايات ما يجعل خالداً قد قام بنفسه بالإغارة . ولـكننا نستبعد ذلك ؛ لأنها لا تستدعي سوق قوة كبيرة بحيث يقودها خالد بنفسه ، والإغارة تتطلب سرعة الحركة والمباغتة ، ولا يتم ذلك إلا بقوة صغيرة ســـريعة الحركة ، لهذا تؤيد القول إن المثنى كان على رأس المغيرين . وسواءٌ أكانت الإغارة على السوق قبيل الفتح أو بعده ، فإن رجلاً ، ولعله من أهل الحيرة ، قد دلّ خالداً على سوق بغداد . فبعث خالد المثنى ، فأغار عليها .

لقد ذهب « موسل » الى ما ذهبنا اليه ، وعدّ رواية سيف بن عمر في هـذا الصدد تلخص حوادث وقعت سنة ١٢ هـ . وكان « كيتاني » برغم اعتماده على الراويين المدنيين الواقدي وابن اسحاق ، قد أنكر رواية المدائني عن إغارة المثنى على سوق بغداد ، وعدّ كل ما قيل عن حركات جرت في الضفة اليسرى للفرات غير صحيحة ، حتى انه أنكر فتح خالد للأنبار . وحجته في ذلك كما بينا قبلاً أن خالداً لم يأت العراق فاتحاً ، إنما أتى مغيراً . ولكن « الموسل » سفّه رأي « كيتاني » في عدة مناسبات ، وعد ما بينه سيف بن عمر توضيحاً لما ذكره البلاذري ورواه المدائني صحيحاً ؛ لأن الواقع التي ذكرها في الإغارة على سوق الخنافس وسوق بغداد تدل على معرفة راويها لجغرافيا البلاد .

وتبدأ رواية سيف بن عمر عن الخنافس التي جاء خبرها في حوادث سنة ١٣ هـ بنزول المثنى في « أُلَّيْس » ، قرية من قرى الأنبار ، وإخبار الرجلين أياه بسوق الخنافس وسوق بغداد . ولما سألهما : أيهما أعجل ؟ أجابا : سوق الخنافس . وهي سوق يتوافى اليها الناس وتجتمع فيها ربيعة وقضاعة . والخبر هذا يتفق مع ما رواه المدائني عن سوق بغداد . فبدأ المثنى بسوق الخنافس وأنتسفه ، وسلب الخفراء . ثم عاد يطرق دهاقين الأنبار ، فقدموا له العلف والأرزاق ، وأتوه بالأدلاء على سوق بغداد . ولم يشر البلاذري ولا المدائني الى سوق الخنافس في حوادث سنة ١٢ هـ . ترى هل وقعت وقعة الخنافس في سنة ١٣ هـ بعد انتصار المسلمين على الفرس في معركة البُوَيْب ، تخلط سيف أخبارها بأخبار سوق بغداد ؟ إن سياق الخبر يوحي بأن الوقعة جرت بعد فتح الأنبار بمدة طويلة ، حينما كان المسلمون يصولون ويجولون في أطراف الأنبار ، ويطلبون الى الدهاقين والمرازبة تقديم الأرزاق والعلف ومساعدتهم على توجيه الإغارات ، حتى إن المثنى يطلب من مرزبان الأنبار نصب الجسر ، مما يدل على أن المثنى كان في الضفة اليمنى ، وأراد العبور الى الضفة اليسرى في الأنبار ، ليبدأ بإغارته . وقد حقّق « موسل » مواقع الإغارة على السوقين في كتابه الفرات الأوسط [1] ، وذكر أن سيف بن عمر في روايته

(١) الفرات الأوسط : هامش (ص ١٣٤) .

المثنى : لا تأخذوا إلاّ الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع الا ما يقدر الرجل على حمله ع دابّته . وهرب أهل الأسواق ، وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء . ثم خرج كا حتى نزل بنهر السيلحين بالأنبار » . وأخيراً قال الراوي : « وأقبل بهم ، ومعهم أدلاؤ يقطعون بهم الصحاري والأنهار ، حتى انتهى بهم الى الأنبار [1] » .

وقد يظهر من محتوى الرواية أن الإغارة على سوق الخنافس وسوق بغداد بدأت من الأنبار مما يدل على أنها وقعت بعد فتح الأنبار . وينبغي أن لا يُفهم أن دهاقين الأنبار كانوا يسكنو الأنبار . والدهقان هو صاحب المقاطعة من أهل البلاد ، يسكن القرى الواقعة في طسو الأنبار . فلا يستبعد أن خالداً حينما أقدم على فتح الأنبار ، بعث المثنى للإغارة على قرى الأنبار فقام المثنى بإغارته مصحوباً بالأدلاّء الذين هيأهم له الدهاقين .

بين « موسل » في كتابه « العراق الأوسط » أن رواية سيف توصلنا الى معرفة موا الخنافس ، وقال : إن ثمة طريقاً يربط الأنبار بالخنافس ، وإن نصف المسافة بين الأنبا والخنافس يبلغ أربعة فراسخ أو خمسة ، ويمتد الطريق بمحاذاة جدول السيلحين ، ويجتاز نه آخر قبل أن يصل الى الخنافس . ووجود السوق في الخنافس ، يدل على أن الموقع هذا كان محطة القوافل التجارية ، وأنه قريب من موقع بغداد القديمة . ويظهر مما ذكره سيف وياقو أن الخنافس من طسوج البردان يمكن تثبيته في غربي قصبة « الكاظمية » الحاضرة التي تبـ عن الأنبار زهاء خمسة وخمسين كيلو متراً ، أي زهاء عشرة فراسخ . أما النهر الذي قطعه المثنى فلعله نهر دُجَيْل القديم . وأما السيلحون ، فذكر « موسل » أنه موقع الصالحين الحدي الواقع غربي بساتين « الكاظمية » على بعد عشرين كيلو متراً على طريق الأنبار .

بقي أن نعرف متى بعث خالد المثنى للإغارة ، وأي طريق سلك في إغارته ؟ ذكر الطبري كتاب صلح الحيرة كتب في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ ، وأن كتاب صلح بانقيا وبارو كتب في صفر للسنة نفسها . ولكننا نعلم أن الطبري جعل فتحها بعد الحيرة . ولعلّ الطبر

(١) الطبري (٢/٦٥٥-٦٥٦) .

في اشارته الى هذا التأريخ جاري راوي المدينة الواقدي وابن اسحاق اللذين قدّما فتح بانقيا وباروسما على فتح الحيرة ، لهذا نجزم بأن كتاب صلح بانقيا كتب في شهر ربيع الأول أيضاً ، ويوافق أول شهر ربيع الأول ١٥ أيار سنة ٦٣٣ م وفي رواية لسيف بن عمر أن خالداً جبى الخراج في خمسين ليلة[1] . واذا صحت الرواية يكون خالدٌ قد قضى في الحيرة أكثر من شهر ونصف شهر ، لتوطيد الحكم في البلاد التي فتحها وقبض الخراج من أهلها ، لهذا يجوز أن الإغارة وقعت على سوق بغداد بعد فتح الحيرة بنحوٍ من شهر وأكثر ، أي في نهاية شهر ربيع الآخر . ويصادف هذا التأريخ منتصف تموز .

ومما يدل على أن خالداً بعث المثنى الى سوق بغداد قبل فتح الأنبار ، سكوت أكثر الروايات عن اشتراك المثنى في فتح الأنبار . ولعلّ الرواية التي أشارت الى أن المثنى قبل إغارته على سوق الخنافس طلب من مرزبان الأنبار مساعدته ، رواية تشير الى حوادث وقعت سنة ١٣ هـ ، أي بعد موقعة البُوَيْب ، إذ فسح للمسلمين أن يجوبوا في البلاد وعلى رأسهم المثنى . واذا كان حقاً أن أحد الحيريين دل خالداً على سوق بغداد ، فلا نستبعد أن الإغارة وقعت حينما كانت بعوث خالد يشنون الإغارات في الأطراف بين الفرات ودجلة ، ويقبضون الخراج . واذا صح ظننا هذا ، يكون المثنى قد عبر الفرات في جوار قيارا ، وسلك الطريق المحاذي للضفة اليسرى للفرات ، ثم عرج على السوق .

فتح الأنبار : لقد لاح لنا من تقدير الموقف الحربي أنه لا يجوز لخالد أن يمرض خلفه للخطر ، ويقدم على فتح عين التمر ما دامت الأنبار بيد الفرس . واذا صدقت الرواية التي تزعم أن خالداً قضى خمسين ليلة في الحيرة ، فان حركته الى الأنبار تصادف أوائل جمادى الأولى ، ولكن هناك رواية تشير الى أن فتح عين التمر تم في شهر ربيع الآخر ، ومعنى ذلك أن حركات خالد في العراق من أطراف البصرة الى عين التمر حشدت في شهرين ؛ لأنه بلغ أطراف البصرة في أوائل صفر سنة ١٢ هـ ، لهذا لا نحسب أن التأريخ الذي ورد في فتح عين التمر صحيح .

(١) الطبري (٢/٥٧٢) .

ليس في روايات فتح الأنبار إشارة الى أن خالداً عبر جسراً ، هل كان الجسر معقوداً في زمن الفتح ، أو أن قائد الحامية في الأنبار أمر بإغلاقه بعد أن تواردت الأخبار عن انتصارات المسلمين وفتحهم للحيرة ؟ ومن المعقول أن يُغلق الجسر بسحب « الجسّاريات » الى الضفة اليسرى ، لأن الفيضان في الفرات يبدأ في شهر نيسان ، ويبلغ ذروته في أيّار ، وتبقى مياهه مرتفعة في شهري حزيران وتموز . وفي هذا الشهر ، أي نيسان ، يصعب عبور الفرات خوضاً ، لهذا لا نرى أن المخاضات وقتئذٍ كانت مساعدة على الخوض .

وكان سيف بن عمر الراويَ الوحيد الذي فصل بعض التفصيل فتح الأنبار ، ويبدو أن المؤرخين الذين كتبوا بعد الطبري استندوا الى رواية سيف بن عمر في تسجيلهم أخبار الفتح . روى سيف أن خالداً خرج من الحيرة الى الأنبار وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، واستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو . والطريق بين الحيرة والأنبار يمتد غربي الفرات بعيداً عن ضفة النهر ، ويمر بكربلاء . وفي الرواية إشارة الى أن خالد بن الوليد سلك الفلوجة ، ونزل بكربلاء . والفلوجة هذه ليست « الفَلُّوجة » الحاضرة ، انما هي احدى قرى الفلاليج الأعلى . وذكرت الرواية أن شيرزاد كان قائد الحامية الفارسية ، وكانت قليلة القوة كما بيّنا ، مرابطة في حصن المدينة . وأوضحت الرواية أن أهل الأنبار لمّا شاهدوا جند خالد ، تحصنوا وخندقوا عليهم ، وتصايحوا من أعلى السور . ويفهم من الخبر أن المقدمة بقيادة الأقرع بلغت الأنبار أولاً ، ثم جاء خالد فأطاف بالخندق وأنشب القتال . ووصفت الرواية خالداً أنه كان قليل الصبر عن القتال ، وذكرت أنه أوصى رجاله أن يرموا عيون الأعداء ، ولا يتوخوا غيرها . فلما رمى جنوده رشقاً واحداً ، ثم تابعوا فقُقئت ألف عين يومئذٍ ، فسميت تلك الوقعة « ذات العيون » . ولما تصايح عرب الأنبار قائلين ذهبت عيون الأنبار ، راسل شيرزاد خالداً في الصلح على أمرٍ لم يرضه خالد ، فرد رسله . ثم أتى أضيق مكان في الخندق برَذَايا [1] الجيش ، فنحرها ، ثم رمى بها فأفعمه . ثم فتح الخندق والرذايا جسور ، فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق ، وأرز القوم

(١) الرذايا : ضعاف الإبل ينحرونها للأكل .

الى حصنهم ، ودعا شيرزاد ، وراسل خالداً في الصلح على ما أراد ، فقبل منه على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في جريدة ليس معهم من المتاع والأموال شيء . هذه هي رواية سيف بن عمر عن فتح الأنبار [1] . أما ابن خلدون ، فيظهر أنه اختصر رواية سيف بقوله : « ثم سار خالد (من الحيرة) على تعبئته الى الأنبار ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، فكان بالأنبار شيرزاد صاحب ساباط ، فحاصروهم ، ورشقوهم بالنبال . . » الى أن قال : « ثم نحر ضعاف الإبل ، وألقاها في الخندق ، حتى ردمه بها ، وجازه هو وأصحابه فوقها ، فاجتمع الكفار والمسلمون في الخندق ، وصالح شيرزاد على أن يلحقوه بمأمنه ، ويخلي له عن البلد وما فيها [2] » .

وذكر البلاذري فتح الأنبار باقتضاب ، واكتفى بالقول « إن خالداً أتى الى الفلالليج مُنْصَرَفَهُ من بانقيا ، وسار الى الأنبار ، فتحصّن أهلها ، فحاصرهم خالد الى أن عاد الثنى من إغارته على سوق بغداد ، فاشتد الحصار ، وأحرق المسلمون النواحي . فلما رأى أهل الأنبار ما نزل بهم ، صالحوا خالداً على شيء رضي به ، فأقرهم » . ولكنه بعد أن ذكر ذلك ، عاد وذكر : « أن مشايخ أهل الأنبار حدثوه أنهم صالحوا في خلافة عمر على ملسوحهم ، وتولى الصلح جرير بن عبد الله البَجَلي [3] » . وذكر الدائني أن « خالد بن الوليد أتى الأنبار ، فصالحوه على الجلاء ، ثم أعطوا شيئاً رضي به ، فأقرهم [4] » .

هذه كل الأخبار عن فتح الأنبار . ويُفهم من رواية سيف بن عمر أن رجال خالد باغتوا أهل الأنبار . ويتبين من الروايات أن الحامية الفارسية كانت قليلة العدد ، وأن خالداً رضي أن تترك المدينة ، وتسير الى مأمنها بحراسة جريدة من الخيل . ويتبادر من هذا الى الذهن هذا السؤال : أي طريق سلكت مقدمة خالد ، ومن أي محل عبر خالد الفرات ؟ وهل الأخبار تخص محاصرة المدينة أو محاصرة الضاحية المقابلة للمدينة والواقعة في الضفة اليمنى ؟ هذه أسئلة من العسير الاجابة عنها ، وقد بيّنّا سابقاً أن مياه الفرات كانت ما تزال يومئذٍ مرتفعة ، فاذا

---

(١) الطبري (٢/٥٧٥) .
(٢) ابن خلدون (٣/٨١) .
(٣) البلاذري (ص ٢٤٧) .
(٤) الطبري (٢/٥٨٤) .

ساعدت على خوض الخيل بعض المخاضات ، فانها لا تساعد على عبور الإبل . واذا كان خالد عبر الفرات على جسر ، فأي جسر هذا ؟ وهل كان يوجد شمالي النخيلة جسر ثان ؟ فنحن نعلم أن الجسر الذي يربط الحيرة بالمدائن كان في أطراف قسياثا . ولم نعثر في جميع الروايات على خبر يشير الى أن خالد بن الوليد عبر الفرات قبل وقوفه أمام خندق الأنبار ، هل عبر الفرات على جسر قسياثا وسار على الضفة اليسرى الى الأنبار ؟ وهذا مسير يتعرض فيه للخطر من الجانب الأيمن ، أو أن رواية نحر ضعاف الإبل وإلقائها في الخندق لتكون جسراً تشير الى وقائع جرت في الضاحية المقابلة للأنبار ؟ وهل كانت هنالك ضاحية ؟

الواضح من الروايات أن مدينة الأنبار ، أو ضاحيتها ، أستسلمت لخالد من غير مقاومة تذكر ؛ لأن القتال لم يتعدّ الرشق من على الأسوار بالنبال ، وأصطدامَ المسلمين والمشركين في الخندق . ويبدو مما أورده البلاذري أن الذي أضطر أهل الأنبار الى الأستسلام بعد أن خندقت الحامية في الحصن ، هو بث المسلمين رجالهم في الأطراف وحرقهم النواحي . ومن الطبيعي أن تكون للأنبار مزارع وبساتين ، مما يدل على أن المسلمين هددوا أهل الأنبار بقطع النخيل وحرق الأطراف ، لذلك لم يصبر الأهلون على المقاومة ، ولا سيما أن الحامية كانت لا تستطيع طرد المسلمين ، فأجبروا قائد الفرس شيرزاد على قبول ما رضي به خالد ، وكان قبل ذلك عرض شروطاً لم يرضها .

وسمح خالد للحامية أن تغادر ، وعقد الصلح مع أهل الأنبار بالشروط التي أملاها عليهم ، وأرفق الحامية بحرس من رجاله لئلا يصيبها مكروه في طريقها الى المكان الذي تأمن فيه . وجاء في رواية سيف : أن شيرزاد قدم على بهمن جاذويه ، وأخبره بما جرى ، فلامه على تصرفاته . أين كان بهمن جاذويه ؟ هل كان في المدائن أو في ساباط أو بهرسير ، والموقعان من ضواحي المدائن على الضفة اليمنى من دجلة ؟

لقد أنكر « كيتاني » على عادته وقعة الأنبار بالرغم من أعتماده على رواة المدينة ، مع أن المدائني الذي ذكر الفتح منهم ، ورأى أستحالة عبور خالد النهر ومحاصرته للأنبار . وفي رأي

« كيتاني » أنه ما دام الواقدي وابن اسحاق لم يذكرا خبر الاغارة على سوق بغداد ، ولم يشيرا الى فتح الأنبار ، فلا الاغارة وقعت ، ولا الفتح وقع بحسب اجتهاده .

ومن الأسباب التي أوردها في إنكار الفتح أن خالداً لا يستطيع عبور النهر من غير مساعدة الأهلين ، وأنه لم يذهب الى العراق للفتح ، فهو لهـذا لايضيع وقته بمحاصرة المدن ، ولا سيما أنه لا يملك آلات الحصار .

صحيح أنه لا يمكنه العبور من غير مساعدة الأهلين ، ولكن الروايات دلّت على أن الأهلين لم يكونوا قلباً وقالباً مع الفرس . فقد أبدينا فيما سبق مخالفتنا لرأي « كيتاني » في مهمة خالد ؛ لأن جميع الحوادث تدل بصورة لا تقبل الجدل أن خالد بن الوليد أتى العراق لفتح ما يستطيع فتحه . وفي الحق أنه لو لم تقم العراقيل بوجه عياض بن غنم ، ولو أنه أتى العراق بعد فتح خالد للحيرة ، لكان هذا القائد الهام قد أقدم على فتح المدائن كما تمنى ذلك وتحسر عليه . ذكر الطبري أن خالداً بعد فتح الحيرة ، قال للمسلمين : « لو لا ما عهد اليّ الخليفة ، لم أتنقّذ عياضاً ، وكان شجي وأشجى بدومة ، وما كان دون فتح فارس شيء » . وأضافت الرواية أنه كان قد « عهد اليـه أن لا يقتحم عليهم (الفرس) وخلفه نظام لهم ، وكان بالعين عسكر لفارس ، وبالأنبار آخر ، وبالفراض آخر [1] » . ونقول : إنه لو لم يقصد خالد الفتح لما فتح الحيرة واستمرّ بها ردحاً من الزمن ، ولما بثّ العمال في الأطراف لجباية الخراج ، ولما فتح عين التمر واستخلف الأمراء على إدارة البلاد التي فتحها .

عين التمر : لقد ثبتنا في بحثنا لجغرافيا العراق موقع عين التمر في زمن الفتح العربي [2] ، وذكرنا أنها تقع في أطراف قرية « شفاثا » أو « شثاثة » كما يلفظها الأهلون . وهي على بعد أثني عشر كيلو متراً شمالي القرية ، وذكرها ياقوت في معجمه وقال عنها : إنه يجلب منها القسب والتمر الى سائر البلاد وهو بها كثير جـداً ، وهي على طرف البرية ، وهي قديمـــة أفتتحها المسلمون أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليـد في سنة ١٢ هـ ، وكان فتحها عنوة . وذكر

(١) الطبري (٢/٥٧٣) . (٢) الجزء الأول من المجلد الثالث من مجلة المجمع العلمي العراقي .

الطبري أنها فتحت على يد خالد قبل سفره الى الشام في السنة ذاتها .

أما البلاذري ، فبينما أشار الى أن فتحها تمّ قبل أخذ خالد كتاب أبي بكر بالذهاب الى الشام ، ذكر في محل آخر عند كلامه على شخوص خالد الى الشام وما فتح في طريقه : أن خالداً سار في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ، فأتى عين التمر ففتحها عنوة ، ثم أضاف قائلاً : ويقال إن كتاب أبي بكر وافاه وهو بعين التمر وقد فتحها ، فسار خالد من عين التمر الى صندوداء [1] . وأشار اليعقوبي أيضاً الى أن خالداً فتح عين التمر بعد أخذه كتاب أبي بكر بالسفر الى الشام .

لقد ثبتنا في مقالنا عن سفر خالد بن الوليد الى الشام [2] : أن خالداً أخذ كتاب أبي بكر بالسفر بعد عودته من حجته الى الحيرة ، أي في نهاية سنة ١٢ هـ ، وأشرنا الى خلط الرواة وتقديمهم بعض حركات خالد على غيرها . وما تزال عين التمر على طرف البادية بعيدة عن القسم المعمور من أرض السواد ، وفي أطرافها عيون كثيرة غرست عليها أشجار النخيل بكثرة ، وساعدت مياهها على نموّ النخيل لوحتها . وكانت عين التمر والأنبار والفراض من المراكز التجارية المهمة ، وكان الذي يملكها ويسيطر على دومة الجندل في وادي السر يصبح حاكماً على البادية الشمالية من جزيرة العرب . وكانت العين ملتقى طرق عديدة : طريق الحيرة الى الجنوب الذي يمر بالقطقطانة والرهيمة ، وطريق كربلاء شرقاً الذي يمر بدير قرة وينتهي بالنخيلة حيث يلتقي بطريق الحيرة — الأنبار ، وطريق صندوداء شمالاً ، وطريق آخر يمتدّ الى الشمال الغربي ويمر بالجناب والخنافس وينتهي بالفراض الواقع على ضفة الفرات اليمنى ، وكانت على ملتقى الحدود الفارسية البيزنطية .

وكانت عين التمر محصنة ، وعلى شرقيها يقع « قصر مقاتل » الذي ورد ذكره في حوادث القرن الأول الهجري . وأقام الفرس بها حامية يسندها بنو تغلب الذين كانوا حلفاء الفرس ، وكانت العين في ديارهم . ولعل وقوف قبائل بني بكر بجانب المسلمين والانتصارات التي نالها

(١) البلاذري (ص ١١٨) .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد نشر المقال في أجزائها ، وطبع مستقلا أيضاً .

المسلمون بمعونة هذه القبائل ، قد غاضت بني تغلب ، وجعلتهم يتحزبون للفرس أكثر فأكثر .

لقد فتح خالد الأنبار ، وبذلك أكمل فتح جميع البلاد التي على ضفة الفرات الغربية من الأُبُلَّة الى الأنبار . ولم يكتف بذلك ، بل بسط نفوذه على البلاد التي بين الفرات ودجلة ، وانتشر رجاله فيها غازين ، حتى أوصلت الروايات سراياه الى السيب بجوار العزيزية . لهذا رأى خالد بعد هذا النجاح الذي ناله في مدة قصيرة أن يلتفت الى العمل الذي أمره به أبو بكر حين وجهه الى العراق بأن يستبق هو وعياض بن غُنم الى الحيرة ، وأن يكون السَّبَّاق ردءاً للآخر . فكان خالد السبّاق ، فليكن ردءاً لعياض الذي ظل متردداً أمام دومة الجندل التي قالت الرواية إنها أشجت عياضاً وشجت . ولكن كيف يذهب الى نجدة عياض وحصنُ عين التمر ما يزال بيد الفرس ، وهو حصن حصين تجمعت به تغلب ؟ ولا بدّ أن خالداً استخبر أن الفرس يحرّضون بني تغلب عليه ، ويمدونهم بالمال ، ليعرقلوا فتوحاته ، وبذلك يتسنّى للفرس اهتبال الفرص لاسترداد ما أضاعوه من ممتلكات في العراق ، لهذا ما إن أتمّ خالد فتح الأنبار ، أو ازالة خطره على الأقل ، إلّا نراه يتوجه الى عين التمر . واختلفت الروايات في زمن فتح عين التمر كما بينا ، حتى إن بعض الروايات جعلت فتح الأنبار أيضاً تمّ بعد أخذ خالد كتاب الخليفة بالسفر الى الشام . وقد فندنا هذه الروايات في مقالنا المذكور ، واستبعدنا قيام خالد بأعمال تؤخر سفره الى الشام ، وقد أمر أن يسرع الى نجدة مَنْ بالشام ، وبينا بوضوح أن خالداً أخذ كتاب الخليفة بعد أن أكمل فتوحات العراق وعودته من الحج في نهاية سنة ١٢ هـ . وأشارت بعض الروايات الى أن خالداً مرّ في طريقه الى الشام بعين التمر وفتحها . وقد أثبتنا في مقالنا سفر خالد بن الوليد الى الشام أنه ذهب من الحيرة ، ومرّ بدومة الجندل ، ومنها عرج على المفازة بين قراقر وسوى ، فقطع المفازة ووصل الى الشام . لهذا نرى أنه ذهب من الأنبار ماراً بصندوداء في طريقه الى عين التمر لفتحها ، وهذا هو الطريق الأقصر . وتقع قرية صندوداء ، كما ذكرنا قبلاً ، على الضفة اليمنى من الفُرات شمال غربي الأنبار وجنوب شرقي الرمادي على بعد زهاء عشرين كيلو متراً ، ويطلق على موقعها أسم « المشهد » أو « المُشَيهد » حيث تقام

جواره سدة لتحول دون تسرب مياه بحيرة الحبانية عملاً بمشروع توسيع البحيرة . وفي الأخبار ما يشير الى أن صندوداء فتحت بعد الأنبار ، وأن خالداً ولى أحد رجاله عليها .

فتح عين التمر : روى سيف بن عمر عن فتح عين التمر ، قال : « لما فرغ خالد من الأنبار ، واستحكمت له ، استخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر ، وتصدى لعين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من التمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم . فلما سمعوا بخالد ، قال عقة لمهران : إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالداً . قال : صدقت ، لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا في قتال العجم . فخدعه واتقى به ، وقال : دونكوهم . وإن احتجتم الينا أعنّاكم [1] » . ويفهم من هذه الرواية أن قوة الفرس في عين التمر كانت قليلة ، وهذا ينطبق على الموقف العام . ولما لم يستطع الفرس حشد قوات كافية للدفاع عن أرض السواد ، لم يستطيعوا إقامة حامية كافية في عين التمر . ويفهم أيضاً أن قائد الفرس مهران شجع عقة على مقاتلة خالد ، وخدعه . ومما يؤيد ذلك ما ورد في رواية سيف بن عمر حين أشار الى أن الفرس استقبحوا عمل قائدهم ، فسألوه : ما الذي حمله على ما قاله لعقة ؟ فقال لهم : « دعوني ، فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم ، شرّ لهم . فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يَهِنُوا فتقاتلهم ، ونحن أقوياء وهم مضعفون . » وذكر البلاذري أن عين التمر كانت مَسْلَحة للأعاجم عظيمة ، وسمى الرئيس العربي فيها هلال بن عقة بن قيس بن بشر النَّمَري ، وقال الكلبي : إنه كان يومئذ على عين التمر يومئذٍ عقة بن قيس بن البشر . ويبدو أن مهران كان يرمي من تشجيع عقة على مقاتلة خالد أن ينشب القتال بين المسلمين والعرب من التمر ، وبذلك تشتد الخصومة بين تغلب والمسلمين ، كما ظهر أثرها في الحركات التي جرت في بلاد تغلب بعد عودة خالد من دُومة الجندل .

لم ينتظر عقة قدوم خالد الى عين التمر ، إنما اعتزم مقابلته على الطريق . وجاء في رواية

(١) الطبري (٢/٥٧٦) .

سيف : « نزل عقـة لخالد على الطريق ، وعلى ميمنته بجير بن عبيد ، وعلى ميسـرته الهذيل بن عمران ، وبين عقة ومهران رَوْحة أو غدوة ، ومهران في الحصن في رابطة فارس ، وعقة على طريق الـكرخ كالخفير [1] » . ويتبين من ذلك أن عقـة أقام نفسه قوة أمامية كما يعبر عنه في التعبئة العسكرية ؛ مهمتها مراقبة تقدم العدو ومقاومته ما أمكن ذلك ، حتى يتيسر للقوات الخلفية الاستعداد للدفاع ، مما يدل على أن القائد الفارسي بعثه ليناوش المسلمين من أمام . ولقد لفت نظرَ « موسل » ذكرُ سيف بن عمر « الروحة » و « الغدوة » فقال : إن البدو ما زالون يستعملون هذين التعبيرين في أسفارهم ، وهما يبيّنان المسافة التي قطعها عقة من عين التمر في مسيره الى الشمال الشرقي . والروحة مسيرُ يوم ينتهي قبل المساء ، أما الغدوة فالسير الى ما بعد المساء أو إلى طلوع الشمس . والمسافة بين عين التمر والأنبار على سنـدوداء زهاء عشرين كيلو متراً ومئة . واذا سار المسافر الى الأنبار من دون أن يمر بسندوداء ، فالمسافة زهاء تسعين كيلو متراً . ويمر الطريق الأول بمنخفض الحبّانية ، أما الطريق الثاني فيجتاز هور أبي دبس . والطريقان لابد أن يمرا بمستنقعات الحبانية وهور أبي دبس ، والفيضان يؤدي إلى أن تغمر مياه الفيضان الأطراف وتجعلها بحيرة . واستند « موسل » الى هـذا الحادث ، وقال : إن الـكرخ ربما كان قبلاً أسماً لبحيرة الحبانية . واذا سار عقة مسافة روحة ، يكون قد انتظر ورود خالد في مكان بعيد عن عين التمر زهاء ستين كيلو متراً . والطريق في هذا المكان يمر بالمستنقعـات التي تضطر المسـافر أن لا يحيد عن الطريق ، ومعنى ذلك أن عقة اختار موقعاً يستطيع بـه أن يعرقل هجوم خالد . ولكن هذا الموقع لم يُجْدِه نفعاً ؛ لأن سيفاً ذكر في روايته « أن خالد ابن الوليد قدم على عقـة ، وهو معبٍّ جنده ، وقال لمجنبتيه : أكفونا ما عنده ، فإني حامل . ووكل بنفسه حوامي ، ثم حمل وعقة يقيم صفوفه ، فاحتضنه ، فأخذه أسيراً ، وانهزم صفه من غير قتال ، فأكثر المسلمون فيهم الأسر ، وهرب بجير والهذيل ، واتبعهم المسلمون » . واذا صحّت هذه الرواية ، يكون خالد قد باغت عقة ، ووصل الى مكانه وهو على تعبئته ، فلم يمهل

(١) الطبري (٢/٥٧٧) .

عقة أن يقيم صفوفه ، بل طلب الى الميمنة واليسرة أن تناوشا مَنْ بإزائها ، وحمل هو بالقلب ، وحمى جانبيه بالخوالي ، وهزم جند عقة بعد أن أسره . ولم تذكر كتب التأريخ الأخرى هذا الاصطدام خارج عين التمر ، وتكاد تشير جميعها الى أن القتال جرى في عين التمر ، فذكر البلاذري أن خالداً بعد فتحه الأنبار أتى عين التمر فألصق بحصنها ، وأشار الى قتال وقع بين خالد وعقة ، وقال : إن هلال بن عقة بن قيس بن البشر النَّمَري ، على النَّمير بن قاسط ، كان بعين التمر مجمعاً لخالد ، وقاتله ، فظفر به خالد ، إذن لم يجد عقة الموقع الذي اختاره . وبينما كان يتوقع أن يجبر المسلمين على قتاله في مكان غير مناسب ، باغته خالد ، ولعله سلك طريقاً لم يتوقع عقة أن يسلكه .

أما مهران قائد حامية عين التمر الذي تحصن بحصنها ، فانه لما جاءه الخبر بهزيمة جند عقة ، ترك الحصن ، وهرب بحاميته . ولعله توجه الى الشمال ليجتمع ببقي تغلب . وذكر سيف أن فلال عقة من العرب والعجم انتهت الى الحصن فاقتحموه واعتصموا به ، وأن خالداً أقبل برجاله ، ونزل على الحصن ، ومعه عقةُ أسير . وكان خالد يتمكن من اقتحام الحصن مع المنهزمين لو لم يكن التعب قد نهك رجاله ؛ لأنهم قطعوا نصف الطريق بين الأنبار وعين التمر ، وقاتلوا عقة ، وكان لابد لهم أن يستريحوا قليلاً قبل استئنافهم السير لمطاردة العدو .

لقد ظن الذين اعتصموا بالحصن أن يكون خالد كمن كان يغير من العرب يمر بالحصن ويغتنم ما يستطيع أن يغتنم ، ويذهب تاركاً الحصن لأهله . ولكنهم رأوا أنه يريد فتح الحصن ، لهذا لم يروا بدّاً من أن يسألوه الأمان ، ولم يكن في امكانهم المقاومة بعد هزيمة عقة وهرب مهران برجاله . أما خالد ، وقد تم عليهم لمساعدتهم الفرس والتصدي لمقاتلته وهم من العرب ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، فاضطروا الى فتح باب الحصن ، واستسلموا له . وذكر سيف أن خالداً « أمر بعقة ، وكان خفير القوم ، وضربت عنقه ، ليؤنس الأسرى من من الحياة » . وهكذا ضرب أعناقهم جميعاً ، وبذلك تم لمهران ما أراد من توسيع الشقة بين المسلمين وتغلب ، وسنرى آثار ذلك فيما بعد .

وروى أبو يوسف في كتاب الخراج فتح عين التمر ، وخبر الفتح هذا لا يختلف في روايته عن وصفه لفتوحات خالد الأخرى . قال أبو يوسف : « انتهى خالد من أهل الحيرة حتى أنتهى الى عين التمر فنزل بها ، وبها رابطة لكسرى في حصن ، وأستنزلهم ، فقتلهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وأخذ ما كان في الحصن من المتاع والسلاح والدواب ، وأحرق الحصن ، وخرب ، وقتل دهقان عين التمر ، وكان رجلا من العرب (يقصد عقة) ، وسبى نساءه وذراريه وأهل بيته » .

دومة الجندل : انتهى خالد من فتوحاته في العراق بفتحه « عين التمر » . وكانت عين التمر ، كما ذكرنا ، آخر ما يربط الفرس بالبلاد الواقعة الى غربي الفرات ؛ وكانت رابطة « الفراض » بشمالي العراق واقعة على الحدود الفارسية البيزنطية : القسم الشرقي الواقع على الضفة اليسرى بيد الفرس ، والقسم الغربي الواقع على الضفة اليمنى بيد البيزنطيين . وبفتح « عين التمر » أنجز خالد أهدافه العسكرية ، ونفذ أمر الخليفة الذي ناط به فتح العراق .

ويظهر من رواية لسيف بن عمر [1] أن خالداً ، وهو ذلك القائد المقدام ، كان يطمح الى فتح العراق كلّه بأقتحام المدائن ، عاصمة الفرس الشتوية و (مستقر عزّ أهل فارس) كما وصفها أبو بكر ، وقد جاء في تلك الرواية قول خالد المسلمين : « لولا ما عهد إليّ الخليفة ، لم أنتقذ عياضاً ، وكان شجى وأشجى بـ « دومة الجندل » ، وما كان دون فتح فارس شيء ، إنها لسنة كأنها سنة نساء » .

لقد ذكر الطبري هذه الرواية قبل بحثه في فتح الأنبار وفتح عين التمر . ولكنّ سياق الكلام يدلّ على أن خالداً قال هذا القول بعد فتحه للأنبار ولعين التمر ، وبجدته عياضاً بدومة الجندل ، وأقتحامه حصنها ؛ كذلك يفهم من تلك الرواية أن نفس خالد كانت تتوق لفتح العراق بأقتحامه عاصمته « المدائن » .

أما أمر الخليفة ، فكان واضحاً ، يطلب اليه ألا يقتحم « المدائن » اذا لم يفض مسالح فارس ،

(١) الطبري (٢/٥٧٣) .

ويأمن أن يؤتى من خلفه ، ويكون عياض ردءاً له بالحيرة . لهذا ما إنْ تسلّم كتاب عياض غِبَّ فتح « عين التمر » إلا وأسرع الى نجدته .

وذكر سيف بن عمر أن أبا بكر أرسل الوليد بن عقبة مدداً لعياض بن غنم ، وكان خالد بن الوليد قد بعث مع الوليد الأخماس الى « المدينة » . ويظهر أن الخليفة لما علم أن عياضاً لم يستطع فتح دومة الجندل ، ويشق طريقه الى العراق ، اضطر أن يرسل اليه المدد . وفي الرواية أن أهل الرأي أشاروا على عياض أن يبعث الى خالد ، ويستمده . فعمل برأيهم . فقدم رسوله على خالد غِبَّ وقعة عين التمر مستغيثاً ؛ فعجل الى عياض بكتاب قال فيه : « إيّاك أريد » . ويتبين من الأخبار أن عياض بن غنم ظلّ متردداً في طلب النجدة من خالد ، ولعلّ الوليد بن عقبة هو الذي ألح عليه أن يستنجد بخالد .

وكانت « دومة الجندل » على ملتقى طرق مهمة ، وهي : طريق دمشق ، وطريق المدينة ، وطريق الحيرة ، وطريق مصر . وكانت القوافل التجارية بين بلاد الشام وبلاد الحجاز وبين العراق والشام تمرّ بها . وهي واقعة في بطن وادي السر (وادي السرحان) الذي يقطعه طريق « دمشق — المدينة » ؛ وفي بطن الوادي مياه غزيرة كونت واحسة ، فيها قرى أخرى . وورد ذكر دومة في سِفْر أشعيا في الاصحاح الحادي والعشرين ، وهو قوله : « وحي دومة يصرخ اليّ من ســـعير » . وجاء خبرها في الكتابات الآشورية عن حروب ملك آشور سنحاريب وأسرحدون باسم « أدومو ـ أدومات » . وذكرها بلينوس باسم « دوماثا » ، وبطليموس باسم « دوميثا » ، وجلوكوس باســم « دوماثا » . وسماها جغرافيو العرب « دُومة » و « دَوْمَـة » و « دُومة الجندل » كناية عن الحجارة التي بُني بها حصنها ، وبينوا المراحل بينها وبين دمشق والمدينة والكوفة وتيماء . وذكرها ياقوت في معجم البلدان ، وثبت قول أبي عبيد السكوني فيهـا : إنها حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلَيْ طيء « أجَأ وسَلْمَى » ، كانت به بنو كنانة من كلب ، وقال : دومة من القريات ، من وادي القرى الى تيماء أربع ليال . والقريات : « دومة ، وسكاكة ، وذو القارة » . فأما دومة ، فعليها سور

يتحصن به ، وفي داخل السور حصن منيع يقال له « مارد » ، وهو حصن أكيدر الملك ابن عبد الملك من كندة . وأضاف ياقوت أن أبا سعد قال إنها سميت دومة الجندل ، لأن حصنها مبني بالجندل .

وكانت الواحة خاضعة لأمراء آل غسان ؛ لأنها داخلة في ساحة نفوذهم . وهي من ديار قبائل كلب التي سكنت وسط بادية الشام ، وتمتد منازلها من جنوبي دومة الجندل الى شمالي قراقر . ويتبين من أخبار الفتوح أن أحد الكنديين قد تملكها حينما كانت تمتد اليها سيطرة ملوك كندة ، وكان الأكيدر أميراً عليها في زمن الفتوح .

وغزيت دومة الجندل لأول مرة سنة خمس للهجرة ، ثم غزاها عبد الرحمان بن عوف ، وغزاها للمرة الثالثة خالد بن الوليد سنة تسع للهجرة .

وأفرد « موسل » في كتابه « البادية العربية [1] » فصلاً قيماً ذكر فيه أن قصبة دومة ما تزال تحوي عدة مجموعات من الدور تظللها بساتين النخيل ، وتحدها من الشمال والغرب والجنوب سفوح حجرية . وتسمى مجموعات الدور بالقصور . وأشار موسل الى أن الحصن أعيد بناؤه ، وكان من منعته أن قبائل « الرُّوَلَة » لم تستطع فتحه سنة (١٩٠٩ م) إلا بعد حصار دام عشرة أشهر .

حوادث فتح دومة الجندل : ذكر ياقوت في معجم البلدان أن خالد بن الوليد فتح دومة الجندل في طريقه الى الشام ، وذكرت مثل ذلك بعض المصادر المدنية والكوفية أيضاً . ولكن سيف بن عمر والمدائني ذكرا أن خالداً ذهب من عين التمر الى دومة الجندل مدداً لعياض ، وبعد أن فتحها كرّ راجعاً . وقال المدائني : إنه أقام بالحيرة ، الى أن وافاه كتاب أبي بكر بالسفر الى الشام .

وقد ثبتنا في مقالنا « سفر خالد بن الوليد من العراق الى الشام » بصورة لا تقبل الشك أن خالداً فتح دومة الجندل قبل سفره الى الشام ، وفي الحق إنه لو لم يفتح دومة الجندل قبل سفره

(١) Arabia deserta (ص ٥٤٩) .

هذا لكان صعب عليه كثيراً الإسراع الى الشام لنجدة المسلمين فيها كما أمره الخليفة ؛ لأن وقائع الفتح دلّت على أن خالداً لقي في حرب دومة الجندل مقاومة عنيفة ، فضلاً عن أنه ما كان خالد ليستطيع أن يشق طريقه الى المفازة بين قراقر وسوى قبل أن يقضي على كل مقاومة في واحة دومة الجندل .

روى سيف بن عمر : « أن خالداً لمّا فرغ من عين التمر ، خلّف فيها عُويم بن الكاهل الأسلميّ ، وخرج في تعبئته التي دخل فيها العين . ولما بلغ أهل دومة مسير خالد اليهم ، بعثوا الى أحزابهم من بَهْراء وكلب وغسّان وتَنُوخ والضجاعم ؛ وقبل ما قد أتاهم وديعة في كلب وبهراء ومساندة أبن وبرة بن رومانس ، وأتاهم أبن الحدرجان في الضجاعم ، وأبن الأيهم في طوائف من غسّان وتَنُوخ ، فأشجوا عياضاً وشجوا به [1] » . ويفهم من الرواية أن جماعات من بهراء وكلب والضجاعم ، وهي من القبائل المجاورة لدومة الجندل ، كانت قد أتت قبلاً لنجدة أكيدر بن عبد الملك في قتاله لعياض بن غنم ، لأنها هي التي أشجت عياضاً . أما طوائف غسّان وتَنُوخ التي أشارت الرواية الى أنها كانت برئاسة أبن الأيهم ، فلعلّها كانت مرابطة في دومة الجندل ، لإشراف رئيسها على أمور الواحة والمدافع عنها عند الحاجة . ولا نعتقد أن أبن الأيهم نفسه كان برأسها ، هذا إذا كان أبن الأيهم هو جبلة أمير الغسانيين الذي حارب المسلمين في الشام كما فصلت خبره الروايات ؛ لأن رواية سيف ذكرت أن الجموع في دومة الجندل كانت على رئيسين : أكيدر بن عبد الملك أمير الواحة ، والجُودي بن ربيعة قائد الحامية من غسان وتنوخ . وكانت الواحة خاضعة لأمراء آل غسان الذين حالفوا الروم في قتالهم المناذرة قبلاً ، وقاتلوا المسلمين في حروب الشام ، وكان نفوذهم يمتد من مرج راهط في شرقي دمشق الى دومة الجندل ، وكانت الحامية الغسانية دليلاً على سيطرتهم على الواحة . ومعنى ذلك أن أكيدر كان أمير الواحة ، ولكنه كان في الوقت نفسه خاضعاً لآل غسان . ويجوز أن الحامية كانت قبلاً قليلة العدد ، ولكن حينما علم أكيدر وقائد الحامية أن عياض بن غنم توجه الى دومة الجندل ، طلبا مدداً من آل غسان ، فأنجدوهما ، واستنجدوا في الوقت نفسه بالقبائل

(١) الطبري (٢/٥٧٨) .

المجاورة : بهراء ، وكلب ، والضجاعم .

وقد ذكر « موسل » الذي زار الواحة ووصفها في كتابه « البادية العربية » أن أهل الواحة من عادتهم أن يدفعوا الضريبة « الخوة » الى القبائل البدوية التي تنزل في جوارهم . وكان رؤساء كثيرون لهذه القبائل يملكون بساتين النخيل في الواحة ، إما بالشراء ، وإما بالاغتصاب . ولما كانت القبائل المذكورة تقبض الضريبة ، لاحظوا أن من منفعتهم أن يحموا الواحة ، ويسرعوا الى نجدتها إذا علموا أن أهلها ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عنها وحدهم . وقال أيضاً : إن القبائل التي ذكرها سيف في روايته كانت لها منازل في شمالي الواحة وغربيها على امتداد الطريق التجاري الذي يمر بوادي السرحان ، أي بطن السر ، ويتوجه الى دمشق والى عمان والى مصر ، لهذا كان التجار يدفعون اليهم الضريبة . وكان من منفعة القبائل أن يسارعوا للدفاع عن الواحة ؛ لأن المسلمين بقيادة عياض قد يجندون الجند من القبائل النازلة الى جنوبي الواحة والى شرقيها ، أو يشتتون شملها . وإذا اضطر أهل الواحة الى الاستسلام ، فلا تكون حينئذٍ حاجة الى نجدة القبائل ودفع الضريبة لها ، وفي ذلك خسارة كبيرة للقبائل . وذكرت الرواية أن القبائل المنجدة كانت على رئيسين : أكيدر وهو رئيس الواحة الوراثي ، والجودي وهو قائد الحامية كما أستنتجنا . وذكر « موسل » أن وجود رئيسين في دومة الجندل يمكن إيضاحه بأن كل واحة واسعة وكل قبيلة كبيرة تعين رئيسين في الشدائد ، أحدهما الوراثي أو الأمير ، والآخر الذي يترأس القبيلة في وقت الخطر ، بيد أنه في الحالات التي يظهر فيها الرئيس الوراثي أنه يفوق رجال القبيلة في الشجاعة ، لا تفتش القبيلة عن قائد آخر ، أي الرئيس الحربي أو (عقيد الحرب) ؛ لهذا يجوز لنا أن نفترض أن أكيدر بن عبد الملك كان الرئيس الوراثي ، أي أمير الواحة ، وأن الجودي كان القائد العسكري عينه النسانيون .

ترى كم كانت قوة الحامية الغسانية ؟ وما عدد رجال أكيدر أمير الواحة ؟ وما القوة التي استنجد بها من بهراء وكلب والضجاعم ؟ لم تشر الرواية الى ذلك . ولكن سير الحركات في دومة الجندل دل على أن عياضاً لم يستطع التغلب على الحامية ورجال أكيدر والقبائل التي

سارعت لنجدة الواحة ، فاضطر آخر الأمر الى الاستعانة بخالد . واذا كان عياض لم يتغلب على المدافعين عن الواحة ، فانهم أيضاً لم يستطيعوا أن يهزموا عياضاً ، إنما سدوا وجهه طريق العراق فقط .

أما قوة عياض ، فلا نعلم عنها شيئاً ، ولم تشر الروايات الى مقدار قوات الفريقين . ويتبين من رواية سيف بن عمر عن الشعبي : « أن أبا بكر كتب الى عياض بن غنم ، وهو بين النباج والحجاز ، أنْ : يسرْ حتى تأتي المصيخ ، فابدأ بها ، ثم ادخل العراق من أعلاها ، وعارِقْ حتى تلقى خالداً ، فأذَنْ لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتح بكاره » . والنباج التي ورد ذكرها هنا هو نباج بني عامر على طريق مكة ـ البصرة . وذكر « موسل » أن النباج هو النبجية الحاضرة ، وهو على طريق البصرة . ولما كانت حدود الحجاز الشرقية تمتد من تيماء الى الجنوب الغربي ، فالمنطقة التي كان عياض يعمل فيها تكون بين النباج وتيماء . إذن كان عياض حين تسلمه كتاب أبي بكر بين النباج والحجاز .

لماذا كان في هذا المحل ، وما كانت مهمته ولم يرد اسمه بين أسماء الأمراء الذين أوفدهم أبو بكر سنة إحدى عشرة للهجرة لمقاتلة المرتدين ؟ وقد جاء في الرواية أن أبا بكر عقد أحد عشر لواء ، ولم يرد في كتاب الخليفة اسم دومة الجندل ، ولا بُدَّ أن أبا بكر كان يعلم أن طريق عياض من النباج الى المصيخ يمر بدومة الجندل . لأنه كان آمناً أن عياض بن غنم لا يلاقي مقاومة فيها ، لأن صاحبها كان قد قطع عهداً بمسالمة المسلمين في زمن الرسول ؟

وجاء في الطبري في حوادث السنة التاسعة للهجرة : « أن الرسول دعا خالد بن الوليد الى أكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كنده كان ملكاً عليها وكان نصرانياً » ، فقال الرسول لخالد : إنك ستجده يصيد البقر . فخرج خالد ، حتى اذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته ، فباتت البقر تحتك بقرونها باب القصر ، فقالت امرأته : هل رأيت مثل هذا قطُّ ؟ قال : لا ، والله ، قالت : فمن يترك هذا ؟ قال : لا أحد ، فنزل ، فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخ له

يقال له حسان ، فركب ، وخرجوا معه بمطاردهم . فلما خرجوا ، تلقتهم خيل رسول الله ، فأخذته ، وقتلوا أخاه حسان ، وقد كان عليه قباء له من ديباج مخوّص بالذهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله قبل قدومه عليه [1] » . وفي رواية عن ابن إسحاق : « أن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلّى سبيله ، فرجع إلى قريته » . والمصيخ الذي ورد ذكره في كتاب أبي بكر ، واقع في ديار بني تغلب في البادية التي تفصل العراق عن بلاد الشام . ولعل عياض بن غنم قد أوفد إلى المكان الذي رابط فيه لغرض عسكري ، ليكون على أستعداد للحركة الى العراق أو الى الشام حين الحاجة ، وليراقب مسير الأحوال وما يجري في واحات وادي السر . وكان أبو بكر قد أوفد خالد بن سعيد أيضاً للغرض نفسه ، حين أوفد الجيوش إلى الشام بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص [2] ، أوفده إلى تيماء لمراقبة العرب المتنصرة . وكان الهدف الذي عينه أبو بكر في أمره لعياض يضطره الى أقتحام دومة الجندل ؛ لأن الطريق بين مكان عياض والمصيخ لابُدَّ أن يمر بوادي السر ، لهذا كان ينبغي لعياض أن يطلب معونة المسلمين من قضاعة في طريقه الى الواحة .

وذكر « كيتاني » أن الروايات المدنيّة لم تشر إلى عياض في حوادث سنة ٢٣ للهجرة ، وأستنتج من ذلك أنه لم يشترك في أحداث تلك السنة ، وقال : إن سكوت الراويين المدنيين يبرهن على أن أشتراكه في الحركات العسكرية سنة ١٢ للهجرة أمر خيالي . ولكن « موسل » انتقد قول كيتاني هذا ، وقال إنه لا يتفق مع كيتاني في هذا الاستنتاج ، وفي سبيل الرد عليه ذكر أنه على الرغم من أن الراويين المدنيين لم يشيرا الى المثنى بن حارثة ، فإن كيتاني أعترف بأن المثنى كان شخصية تاريخية ذات شأن وذات شهرة كبيرة في فتوحات فارس . وقال موسل : صحيح أن عياضاً ، كما روى أبو مخنف ، لم يشترك في فتوحات العراق في سفر خالد ، ولكنه

(١) الطبري (٢/٣٧٢ — ٣٧٣) .

(٢) أشرنا إلى ذلك في مقالنا (معركة أجنادين) في المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العراقي .

لم يُذكر في حوادث العراق سنة ١٢ للهجرة ، ولكنه ليس هنالك من سبب للظن أنه لم يشترك في محاصرة دومة الجندل . وتقدم خالد في العراق من الجنوب الى الشمال حتى فتح عين التمر ، وتسلّم فيها كتاب عياض يستغيث بـه ، وكان يومئـذ ما يزال في واحة دومة الجندل ، وامتنع في أول الأمر من طلب النجدة . لكن الوليد بن عقبة الذي كان على رأس نجدة أوفدها الخليفة قد أقنعه في الأخير بأن بالموقف حاجةً كبيرة الى النجدة . واستطرد موسل الى أن دومة الجندل ما لم تسقط بيد المسلمين فان القبائل القاطنة في شمالي جزيرة العرب كانت تستطيع أن تقطع خطوط الاتصال بين العراق والشام ، وتتمكن من القيام بهجوم خلفي على المسلمين الذين كانوا يحاربون في جهتين : العراق ، والشام . وانتقد موسل قول كيتاني إنه كان بوسع أبي بكر أن يرسل خالداً من النباج رأساً الى دومة الجندل بدلاً من إرساله من عين التمر ، لأن كيتاني رأى أن سفر خالد من العراق الى دومة الجندل يعرّض جنده لخطر هجوم فارسي يأتيه من خلفه . وفي معرض الردّ قال موسل : إن المسافة بين النباج ودومة الجندل سبع مئة كيلومتر ، والطريق يمر بمنطقة النفود ، وموارد المياه فيها تبعد في بعض محلاتها زهاء مئتي كيلو متر ، بينما المسافة بين عين التمر ودومة الجندل هي زهاء خمس مئة كيلو متر ، وكانت القوافل تقطع الطريق بينهما . ويستطرد موسل قائلا : يبدو أن كيتاني جهل أن خالداً لو ذهب رأساً من النباج الى دومة الجندل لكان لابد له أن يذهب اليها من عين التمر . ومن انتقادات كيتاني لحركة خالد ، قوله : إن نظرة بسيطة على الخارطة ، تظهر أنه ليس ثمّة غرض ما من سوق الجيش يحمل خالداً على تركه حدود فارس ، وتوغله في بادية السماوة لفتح دومة ؛ لأنه في توغله في البادية يصادف عدواً قوياً من جهة ، ويعرّض خطوط رجعته لهجمات الفرس من جهة أخرى . ويجيب موسل على هذه الانتقادات أن ثمّة أسباباً جغرافية وعسكرية حملت خالداً على فتح واحة دومة الجندل ؛ لأنها تسيطر على طرق المواصلات في شمالي جزيرة العرب ، فضلاً عن أنها معقل قوي يتملكه أعداء المسلمين ، ومن هذه الواحة يتيسر قطع طرق القوافل التجارية بين دمشق والمدينة وبين الحيرة والمدينة ؛ لهذا كان للحملة الموجهة الى دومة الجندل أهمية بالغة

من الناحية السياسية والعسكرية والتجارية ، ولو أخفق خالد في فتح دومـة ، لتعسر عليه أن ينجز مسـيره الى الشام حين طلب اليه الخليفة ذلك ؛ لأنه في سـفره من العراق الى الشام كان يُخشى بهزيمة لا من جانب الفرس والروم وحـدهم ، بل من جانب القبائل السـاكنة في شمال جزيرة العرب ، ويؤازرهم في ذلك أهل واحة دومة الجندل ؛ ولهذه الأسباب أحسن خالد عملاً بتلبيته لاستغاثة عياض وبإسراعه في السير نحوه [1] .

قلنا آنفاً : إننا نجهل قوة عياض بن غنم ، وحسبنا أنه رابط في مكانه بين النباج والحجاز لمراقبة الأحوال . يقيناً إن أبا بكر أرسله على رأس قوة ضعيفة ، لأنه كان قد بعث أكثر قواته الى الشام بقيـادة الأمراء الثلاثـة ، كما بعث قوة غير قليلة الى العراق بقيادة خالد بن الوليد . ويتبين من مطالعة الخارطة أن عياضاً في سفره الى دومة الجندل مرّ بديار طيء ، وجبل تيماء على يساره ، ولعله استمد رجالاً من طيء ومن قضاعة ولا بد أن أهل الواحة علموا بسفره نحوهم ، فاستنجدوا بالقبائل المجاورة .

حركة خالد بن الوليد الى دومة الجندل : تسـلم خالد كتاب عياض ، وأسرع لنجدته ، ونسبت الرواية اليه رجزاً كتبه في حاشية كتابه الوجيز الذي أجاب به عياضاً ، وهو :

لَبِّثْ قليلاً تأتِكَ الحلائبُ   يحملن آساداً عليها القاشبُ

كتائبٌ تتبعها كتائبُ

وقد يفهم من هذا الرجز أن خالداً سار على رأس قوة كبيرة ، ولكنه لا الموقف العسكري ولا الموسم كان يساعد أن يسير خالد في قوة كبيرة ؛ لأنه ترك المثنى وجنده من بكر في العراق ، واضطر الى إقامة بعض الجند في الأماكن التي فتحها ، فضلاً عن ضرورة إقامة حامية في كل من الحيرة وعين التمر .

وكانت القوة التي ترأسها ، في أغلب احتمال ، خيالة أو هجانة ، وكان الموسم وقتئذ صيف سنة ١٢ للهجرة ، والتاريخ نهاية شهر ربيع الآخر أو أوائل جمادى الأولى . وهـذا يصادف

(١) وردت هذه الملاحظات في كتاب موسل (البادية العربية) (ص ٤٩٠) من الملحق .

شهر تموز سنة ٦٣٣ م . وفي هذا الشهر تكون مياه الأمطار المتراكمة في البرك والخبرات (جمع خبرة) قد قلّت ، لذلك لا نظن أن خالداً سار على الطريق الأقصر الذي يربط عين التمر بدومة الجندل ، ويتعسر على قوة خيالة أن تقطعه في الصيف لندرة الماء فيه . والروايات التي ذكرت أن خالد بن الوليد فتح دومة الجندل في طريقه إلى الشام ، جعلت بدءَ حركته من الحيرة ؛ لهذا نجزم أنه سار على طريق الحيرة — دومة الجندل ، أي أنه عاد من عين التمر الى الحيرة ، ومنها أخذ طريق القوافل : « القادسية — القرعاء — وقصة — حبكة — سكاكة — دومة الجندل » . فإن المسافة بين عين التمر والحيرة ودومة الجندل ، تبلغ زهاء خمسين كيلو متراً وثمان مئة ، وتقطع في أثني عشر يوماً المسافر الجدّ ، والقوة غير قليلة العدد أكثر من ذلك . إن الماء في هذا الطريق متوفر ، ولا بد أن خالداً قضى بعض الوقت بالاستعداد للسفر ، وقد ذكرت الرواية أنه لما بلغ أهلَ دومة مسيرُ خالدٍ اليهم ، بعثوا الى أحزابهم من بهراء وكلب وغسّان وتَنُوخ .

ومما أورده موسل في كتابه « البادية العربية » أن أهل دومة الجندل كانوا على اتصال مستمر بواحة عين التمر ، ولا بد أنهم كان لهم فيها جواسيس يترقبون حركات خالد في العراق . وقال : إن ساعياً ممتطياً هجيناً سريع السير ، يستطيع أن يقطع الطريق بين عين التمر ودومة الجندل في أربعة أيام ، بينما كان خالد يحتاج الى أسبوعين على الأقل لإكمال استعداداته للمسير . ويتبين من قوله هذا أن الزمن كان بجانب أهل دومة ، لهذا أنجدتهم الأحزاب قبل وصول خالد .

وتشير الرواية الى اختلاف حدث بين أكيدر والجودي . الأول لا يريد الحرب ، والثاني يريدها . وكان الأكيدر قد خبر خالد بن الوليد قبلاً ، وقد أسره وبعث به الى الرسول كما ذكرنا ، ومما قاله أكيدر لمن أراد الحرب : « أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلّوا أو كثروا الا انهزموا منه ،

أطيعوني وسلطوا القوم . فأبوا عليه . فقال : لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنكم [1] » .
وكان الأكيدر على حق في تفضيله الصلح على الحرب ، وإذا كان الأكيدر والجودي ومن التف حولهما لم يستطيعوا قهر عياض ، فما أحراهم أن يخسروا المعركة أمام خالد وعياض بالرغم من نجدة الأحزاب لهم ! وكان الخلاف بين الأمير الوراثي صاحب الواحة والقائد العسكري الذي يمثل نفوذ الغسانيين . ولما رأى الأكيدر أنهم لم يطيعوه ، خرج لطيبته ، وترك الواحة ، فأصبح الجودي الحاكم الوحيد فيها . هكذا تقلب الحزب الحربي ، ولقي حتفه بيده . وذكرت الرواية أن خالداً علم بخروج الأكيدر من دومة ، فبعث عاصم بن عمرو معارضاً له ، وادّعى الأكيدر أنه خرج ليلاقي خالداً ، ولكن استصحبه عاصم ، وأتى به خالداً ، فأمر به فضربت عنقه ، وأخذ ما كان معه من شيء ، ومضى خالد حتى نزل على أهل دومة .

ويفهم من الرواية أن الأكيدر فضّل ملاقاة خالد على الهرب ؛ لأن الطريق الوحيد الذي يسلكه بأمان هو الطريق الذي يذهب الى الشام مارّاً ببصرى ، وكان حينئذ ما يزال بيد الروم ، فضلاً عن أن البلاد كانت تحت نفوذ آل غسان . لهذا كان بامكانه أن يلتجيء اليهم ، ولكن إلقاء عاصم القبض عليه دلّ على أنه سلك طريقاً آخر ، لهذا لا نستبعد أنه أراد « الدخالة » على خالد ، ولكن خالداً لم يقبل دخالته ، انما حكم فيه السيف ؛ لأنه نكث العهد الذي عاهد به الرسول .

فتح دومة الجندل : وصل خالد الى واحة دومة الجندل من الشرق ، وحاصرها من هذه الجهة ، وكان عياض بن غنم وجنده في غربي القصبة . هكذا أصبحت القصبة محاصرة من الجهتين . وذكر موسل الذي زار الواحة ، وشاهدها عن كثب ، ووصفها : أن القوات المنجدة نزلت في أطراف الحصن ؛ لأن الساحة كانت ضيقة لا تؤوي الجميع . وجاء في الرواية ما يأتي : « ومضى خالد حتى نزل على أهل دومة ، وعليهم الجودي بن ربيعة ووديعة الكلبي وابن رومانس الكلبي وابن الأيهم وابن الحدرجان ، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض ،

(١) الطبري (٢/٥٧٨).

وكان النصارى الذين أمدوا أهلَ دومة من العرب محيطين بحصن دومة ، لم يحملهم الحصن » .
وكان الموقف العسكري قد جعل المسلمين في الخطوط الخارجة ، والأعداء في الخطوط الداخلة : المسلمون يسدون الطريق على الأعداء من الشرق والغرب ، والأعداء بين الخطين الخارجين يتحفزون للهجوم .

ودلت الرواية على أن الجودي ووديعة ، أي حامية الغسانيين ومن أنجدها من تنوخ والنجدات الكلبية ، واقفين بوجه خالد . أما ابن الحدرجان وابن الأيهم ، فوقفا بوجه عياض .

ولما كانت الساحة لا تستوعب الجميع ، وكان الحصن لا يستوعبهم ، كان لزاماً على القوات المحصورة أن تشن الهجوم لطرد المحاصرين . وهذا ما وقع ، هاجم الجودي ووديعة خالداً ، وهاجم ابن الحدرجان وزميله عياضاً . وذكرت الرواية : « أن الفريقين اقتتلا ، فهزم الله الجودي ووديعة على يد خالد ، وهزم عياضٌ من يليه ، وركبهم المسلمون . فأما خالد ، فانه أخذ الجودي أخذاً ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة ، وأرز الناس الى الحصن ، فلم يحملهم . فلما امتلأ الحصن ، أغلق من في الحصن الحصنَ دون أصحابهم ، فبقوا حوله حرداء[1] » ، فوجب على خالد مقاتلة الحرداء أولاً ، ثم اقتحام الحصن . ويبدو أن القتال في أطراف الحصن كان عنيفاً بين رجال خالد الذين كانوا يريدون أن يتخلصوا من الحرداء ، للتفرغ للحصن ، وبين الحرداء من كلب وبهراء والضجاعم الذين يقاتلون قتال المستميت . أما الغسانيون فالظاهر أنهم التجؤوا الى الحصن ، وكانوا رابطته . وفي هذا الموقف العصيب فعلت الحمية الجاهلية فعلها ، فأراد عاصم بن عمرو التميمي أن يجير حلفاءه في الجاهلية بني كلب ، فنادى : « يا بني تميم ، حلفاؤكم كلب أسروهم وأجيروهم ، فانكم لا تقدرون لهم على مثلها » . وكان بنو تميم حلفاء بني كلب قبل الإسلام ، فأراد رئيس التميميين عاصم أن ينقذ الكلبيين من القتل ، فلبى التميميون نداء رئيسهم ، وكان نداؤه سبباً لنجاة بني كلب .

ثم أقبل خالد على من التف حول الحصن ، وذكرت الرواية : « أنه قتلهم حتى سدّ بهم

(١) الطبري (٢/٥٧٩) .

باب الحصن ، ودعا الجودي فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم ، الا أسارى كلب ، فان عاصماً والأقرع وبني تميم قالوا : قد أمناهم . فأطلقهم خالد ..... ثم أطاف خالد بالباب ، فلم يزل عنه حتى اقتلعه ، واقتحموا عليهم ، فقتلوا المقاتلة ، وسبوا الشرخ » .

وبفتح خالد لدومة الجندل سيطر على أهم طريق في شمالي جزيرة العرب ، ومكث بعد ذلك مدة قصيرة في دومة ، وفي أثناء عودته في الطريق ، بعث الأقرع الى الأنبار ، وسار على رأس باقي قوته الى الحيرة ، فاستقبل فيها استقبال الفاتحين ؟

طه الهاشمي